مجلة الحكمة للدراسات الأدبية واللغوية
Eissn :2600-6421 Issn : 2353-0464
المجلد 1 / العـــدد: 03 (2013)، ص 6 - 16

دراسة في العلاقة بين النصّ والخطاب

د. سهام مادن
جامعة الجزائر- الجزائر

احتلّت مصطلحات (النصّ) و(الخطاب) موقعا مركزيّا في الأبحاث والدراسات التي تندرج في مجالات (تحليل الخطاب) و(لسانيّات الخطاب) و(لسانيّات النصّ)، و(نحو النصّ) وغيرها، حتى إنّنا لا نكاد نجد مؤلّفا ينتمي إلى هذه المجالات يخلو من هذه المفاهيم، وهذا ما سنحاول توضيحه.

- **النصّ** : تتعدّد المعاني اللّغوية لمادّة (ن، ص، ص)، فهي تدلّ على الرفع بنوعيه الحسيِّ والمجرّد، وتدلّ كذلك على أقصى الشيء وغايته، وعلى الاستقصاء أي الإحاطة، وهو متصّل بالمعنى السابق، ومنه نصّ الرجل نصّا إذا سأله عن شيء حتّى يستقصي كلّ ما عنده، ومن دلالتها كذلك الإظهار[1].

ويمثّل مصطلح (النصّ) إشكاليّة معقّدة وكبيرة في النقد الحديث، وذلك بسبب تداخله مع عدد من المصطلحات الأخرى كالخطاب والأثر وغيرها، وقد حاول لسانيان فرنسيّان هما"روبير لافون" و"فرانسواز مادري" R.Lafant et F.C.Madray" أن يتتّبعا هذا المصطلح منذ نشأته، واستعمالاته في العصور المختلفة، فتوقفا عند مختلف النظريات اللسانية أمثال فردينان دي سوسور وجاكبسون خاصّة فيما يتعلّق بحديثه عن علاقة النصّ بالتواصل[2].

وإذا حاولنا استخلاص أهمّ المقوّمات الجوهريّة لمصطلح النصّ لدى أولئك اللّسانيين واللغويّن عبر دراساتهم المختلفة، فالنصّ هو كلّ خطاب مثّبت بواسطة الكتابة[3].

إنّ تجلّي النصّ في مظهر كتابيّ يضعنا وجها لوجه أمام السمة اللّغوية للنصّ باعتبار الكتابة جزءا من النظام اللغوي، وقد أشار اللساني "جون لوي هودبين" J.L.Hoodbeen" إلى مفهوم النصّ وارتباطه بالكتابة[4].

وأمّا المقوّم الثاني للنصّ فهو ظهور المعنى، فيطلق النصّ على "ما به يظهر المعنى"[5]، ولظهور هذا المعنى آليات متعدِّدة تختلف باختلاف الدارسين، ولا ينظر للحجم في تسمية الملفوظ نصّا، فكلّ ملفوظ مهما كان حجمه يمكن أن يعدّ نصّا إذا تركّب من سلسلة من الوحدات اللّغوية ذات الوظيفة الواضحة[6]، ومن هنا قد يكون النصّ جملة أو عدّة جمل، أو سلسلة متوالية من الجمل تقصر وتطول بحسب السياق، ومن هذا المنطلق يعرِّف كلّ من هاليداي ورقيّة حسن النصّ كما يلي: "بأنّه وحدة لغويّة في طور الاستعمال"[7]، أي وحدة دلالية تحكمها وظيفة تواصلية.

والنصّ سلسلة من العلامات المنتظمة في نسق من العلاقات تنتج معنى كليّا يحمل رسالة[8].

كما أنّ طريقة توالي الجمل المترابطة يحدّد إيقاع القراءة، وبذلك يدخل في تشكيل النصّ تقسيمه إلى فقرات وفصول وصفحات، وإنّ اختيار الكاتب لجنس أدبيّ ما أو لاتجاه فنيّ هو اختيار للغة التبليغ التي ينوي الاتّصال بقارئه من خلالها، وهذا يمثِّل المقوّم الثالث الذي نطلق عليه مصطلح شكل النصّ"، وقد تطرّق اللساني المغربي محمّد الماكري إلى أثر هذا الشكل في بناء النصّ وتحليله في دراسته (الشكل والخطاب)[9].

ولقد عرّف الدكتور عبد الملك مرتاض النصّ قائلا:" النصّ شكل مغلق له بداية ونهاية"[10].

إنّ تماسك النصّ وترابطه عنصر آخر من العناصر البارزة التي يقوم عليها مفهوم النصّ، ويقصد بهما توافر مجموعة من العلاقات التي تساعد على ربط أجزاء النصّ بعضها ببعض عن طريق الروابط النحويّة، كالضمائر وأدوات العطف، والروابط الزمنيّة، والدلاليّة كالترتيب المنطقي والتكرار والحذف.

من المقوّمات الأخرى الانسجام أو الاتِّساق بين النصّ والسياقات التي يظهر فيها، فالنصّ يتّسق مع سياق ثقافيّ عامّ يتصّل بالتاريخ والقانون والدين والأدب، ولذلك تقترح كريستيفا دراسة الأشكال النصيّة ضمن منظومة الثقافة والتاريخ التي يتشكّل منها وفيها النصّ[11]، كما ينسجم مع سياق آخر يمكن أن نطلق عليه مصطلح "المقام" الذي

عرّفه جون لاينز قائلا:" يشتمل المقام على مجموعة الظروف والملابسات التي اكتنفت كتابة النصّ، وتقاس درجة التماسك والترابط في ذلك النصّ بالنسبة إلى السياق الذي يظهر فيه... [12]

كما يفترض لايتر نوعا من الانسجام أسماه "الانسجام الدلالي"، ويقصد به أن تكون المكوّنات الدلاليّة والعناصر المعجميّة في النصّ مولّدة ضمن توافق نحويّ معيّن[13].

واستعمل باحثون آخرون مصطلح "التشاكل" بدلا من مصطلح الانسجام، وقد استفاد الدكتور محمد مفتاح[14]من مفهوم التشاكل لدى اللّغويين وحلّل في ضوئه قصيدة كاملة توقف فيها عند التشاكل الصوتي والتركيبيّ والدلالي وربط ذلك كلّه بالقواعد التداوليّة.

ويذكر بيوجراند ودرسلر أنّ التواصل يربط بين خصائص النصّ المختلفة والقارئ[15]، بل إنّ آخرين يتجاوزون ذلك إلى القول إنّ "النصّ عملية يخلقها القارئ"[16].

ويشرح رولان بارت آلية التواصل بين عناصر النصّ قائلا:" إنّ النصّ هو ذلك الشيء الذي يتحقّق لدى القارئ من تفاعله بالعلامات التي يتألّف منها المنطوق الإبداعي"[17].

وبذا بصبح القارئ جزءا لا يتجزأ من تعريف النصّ عند بارت، وذهب اللسانيون إلى نظرية تطبيقية لعملية التواصل وقالوا أنّ كلّ حدث لغويّ يتضّمن رسالة وأربعة عناصر مرتبطة بها هي: المرسِل، والمتلّقي، ومحتوى الرسالة، والكود أو الشيفرة المستعملة فيها[18] ، وهذه العناصر تعمل متماسكة متآلفة فيما بينها.

أمّا المقوّم الأخير فهو "جامع النص" وهو من مصطلحات الناقد جيرار جينت[19] G.Genette.

ويفترض كثير من الدارسين وجود بنية نصيّة كبرى يغترف الكاتب منها، ويعود إليها، ويتصارع معها، ففي لا عيه تمثّل هذه البنية الكبرى (جامع النصّ) مزيجا من آلاف

النصوص المتداخلة، ويوظّفها الكاتب في سعيه إلى إنتاج الدلالة وفقا لعلاقة معيّنة بين كاتب وقارئ في إطار ثقافيّ واجتماعيّ مجدّد[20].

ويطلق عليها بعض الدارسين مطصلح "المتعاليات النصيّة، ويمكن من خلالها فهم ألوان عديدة من التناص[21].

نستشف ممّا تقدّم ذكره أنّ النصّ هو كلّ كلام متصّل ذو وحدة جليّة تنطوي على بداية ونهاية، ويتّسم بالتماسك والترابط، ويتّسق مع سياق ثقافي عام أنتج فيه، وينسجم مع سياق خاصّ أو مقام يتعلّق بالعلاقات القائمة بين القارئ والواقع من خلال اللّغة، وبين بداية النصّ وخاتمته مراحل من النموّ القائم على التفاعل الداخليّ، وهذا التفاعل يؤدّي إلى تواصل منسجم بين منتج النصّ ومتلّقيه.

-**الخطاب** :

الخطاب أحد مصدري فعل (خاطب) يخاطب مخاطبة وخِطابا، وهو يدلّ على توجيه الكلام لمن يفهم[22]ويعرّفه ابن منظور قائلا:" الخطاب مراجعة الكلام"[23].

وتعرِّفه المعاجم الحديثة مثل محمد علي الخولي فيما يلي:" إيصال المعنى إلى السامع عن طريق الكلام"[24]، وعرّفه إبراهيم فتحي قائلا"الخطاب تتسلسل فيه الكلمات وتترتب"[25] ، وعرّفه رمزي البعليكي قائلا:" الخطاب قد يكون شفويّا أو تحريريّا ويعالج موضوعا بشيء من التفصيل[26] .

وأشار الأصوليّون إلى تطّور مصطلح الخطاب، فهو في مجالهم يدلّ على ما خوطب به وهو الكلام"[27] ، ويضيف الكفوري في (كلّياته) عنصرا جديدا وهو الجانب النفسي فيقول:" إنّ الكلام اللفظي أو النفسي الموجّه نحو الغير للإفهام"، وهو تعريف موافق لتعريف الغزالي في المستصفى[28].

كما أضافت الدراسات اللغوية الحديثة[29] عناصر للخطاب، ففيرث Firth عالم اللغة البريطاني في العصر الحديث يركّز على وظيفة الخطاب باعتبارها عملية اتّصال تتمّ في إطارين: الإطار اللّغوي وهو عبارة عن جمل مكتوبة أو منطوقة ينتجها مرسل واحد أو عدّة متخاطبين كما يحدث في الحوار أو غيره، وإطار غير لغوي يشمل العادات والأعراف والتقاليد والأخلاق وهو ما أطلق عليه مصطلح (إثنوجرافيا الخطاب)، والخطاب

باعتباره حدثا كلاميّا يتألّف من عدّة عناصر هي: المرسل، والمستقبل أو الجمهور، والرسالة أو الموضوع، والهدف.

ويربط بعض علماء اللّغة هدف الخطاب بالأثر الذي تحدثه وسيلة الاتّصال بين المرسل والمتلّقي، وقد عبروا عن هذه الوسيلة باستخدام كلمة قناة (Channel)، والقنوات المتاحة لمنتج الخطاب كثيرة[30].

ويتداخل مفهوما النصّ والخطاب تداخلا كبيرا لدرجة يصعب معها أحيانا التمييز بينهما، ممّا دفع بمحرّري المعجم الموسوعي للسيميائيّة، إلى معالجة المفهومين في فقرة مشتركة[31]، وفي مجال السرديّات يستخدم مصطلح (النصّ) غالبا مقابلا لمصطلح (الخطاب) كما هو الحال في دراسات جنين وتودوروف (Todorov) وفاينريش (H.Weinrich) [32].

ونجد أنّ (فان ديك) يقدّم تمييز أكثر تحديدا فهو ينظر إلى النصّ بوصفه بنية عميقة بينما يمثّل الخطاب بنية سطحيّة، أو ينظر إليهما بوصفهما مظهرين: المظهر التجريدي والمظهر الحسيّ، والنصّ مظهر تجريدي، بينما الخطاب يجسِّد وحدة لسانيّة تتجلّى في ملفوظ لغويّ[33].

فالنصّ وحدة مجرّدة لا تتجسّد إلاّ من خلال الخطاب كفعل تواصليّ.

ومن خلال الدراسات المختلفة يتبيّن لنا أنّ الخطاب كلمة تستخدم للدلالة على كلّ كلام متصّل اتّصالا يمكِّنه من أن ينقل رسالة كلاميّة من المتكلّم أو الكاتب، وليس كلّ خطاب نصّا وإن كان كلّ نصّ بالضرورة خطابا، فالكلام المتصِّل خطاب، ولكنّه لا يكون نصّا إلاّ إذا اكتمل ببداية ونهاية وعبّر عن موضوعه ببناء متماسك منسجم.

وأمّا تحليل الخطاب فيعني تكوين الفروض التي تتعلّق بالمخاطِب، والمخاطَب، وروابط الخطاب، ودرجة اتّصاله، وتماسك الأبنية المكوّنة له، كما يتطلّب تجريدا للمعلومات المتصّلة باختيار الألفاظ والتراكيب والمعلومات المكوّنة للخطاب، وتحوّلات الزمن والدلالات فيه.

إنه لا يمكننا أن ندرس النصّ والخطاب بمعزل عن السياق كما أشرنا سابقا، ولهذا فسنتطرق الآن إلى تحديد مفهوم السياق.

- **السياق** : ورد في لسان العرب لابن منظور: "ساق الإبل يسوقها سوقا وسياقا، وتساوقت الإبل أي تتابعت"[34]وفي أساس البلاغة عرّفه الزمخشري، "فلان يسوق الحديث أحسن سياق، وهذا الكلام مساقه إلى كذا"[35]

وقد تكون كتب التفسير وكتب الأصول من أوائل الكتب التي تبلور فيها معنى السياق كمصطلح، كما نجد ذلك في الرسالة للإمام الشافعي[36] (ت204هـ)، وتطلق لفظة (السياق) في عرّف المفسرين على الكلام الذي خرج مخرجا واحدا، واشتمل على غرض واحد هو المقصود الأصلي للمتكلّم، وانتظمت أجزاؤه في نسق واحد، وقد تدلّ على السياق ألفاظ أخرى، كالمقام ومقتضى الحال والتأليف، وغيرها.

وتعرّف المعاجم الحديثة (السياق) بأنه" بيئة الكلام ومحيطه وقرائنه"[37]ويعرّفه آخرون بأنه" علاقة البناء الكلي للنص بأي جزء من أجزائه"[38]، وتؤكد هذه المعاجم الحديثة إلى تضافر سياقات عديدة في النص تساهم في صياغة الرسالة اللغوية، وهي السياقات النحوية، والبلاغية، والصوتية.

وقد اهتّم النقاد والدلاليون واللسانيون والأسلوبيون بالسياق من وجهات مختلفة، فدرس أوستن استخراج السياق من خلال البنى المختلفة للرسالة اللغوية[39]، واهتّم علماء الدلالة بالمعنى السياقي، أمثال جون لاينز[40]وفيرث[41].

يمثّل السياق ركنا أساسيا في فهم الرسالة اللغوية، ويأتي السياق في نوعين: السياق اللغوي، والسياق الحالي، والأول يرتبط بمعنى الكلمة في إطار الحديث أو النص، والثاني سياق الحال أو المقام الذي يزيل اللبس والغموض عن الجمل والنصوص لأنه يمثل مجموعة من العوامل البيئية والاجتماعية والنفسية، ويعبّر "غراها هو" عن هذا المعنى بقوله: "إن قراءة القصيدة خارج سياقها لا تعد قراءة أبدا[42].

إن الوظيفة الاجتماعية التي يؤديها الكلام عبر أنظمة اللغة لا يمكن دراستها بمعزل عن السياق الذي حصل فيه فعل الكلام، وهو ما عبّر عنه علماء البلاغة بقوله:" لكل مقام مقال"، كما إن دراسة التشكيل الكلامي ومكوّناته من الداخل ستوصلنا إلى تفسير النظام اللغوي.

دراسة في العلاقة بين النصّ والخطاب

ويعرّف النصّ بأنه كل كلام متصّل ذو وحدة جلية تنطوي على بداية ونهاية وتتسّم بالتماسك والترابط، ويتّسق مع سياق ثقافي عام أنتج فيه، وينسجم مع سياق خاص أو مقام، يتعلق بالعلاقات القائمة بين القارئ والواقع من خلال اللغة وبين بداية النص وخاتمته مراحل من النمو القائم على التكامل الداخلي، وتوافر العناصر السابقة وتفاعلها يؤدي بالنص إلى إحداث وظيفته التي تتمثل في خلق التواصل بين منتج النص ومتلّقيه.

يستخدم مصطلح الخطاب للدلالة على كلّ كلام متّصل اتّصالا يمكنه أن ينقل رسالة كلامية من المتكلّم أو الكاتب، والخطاب كالنصّ غير أنّ ليس كلّ خطاب نصّا، وإن كان كل نصّ بالضرورة يشكّل خطابا، فالكلام المتصّل خطاب، ولكنّه لا يكون نصّا إلا إذا اشتمل على بداية ونهاية، وعبّر عن موضوعه ببناء متماسك منسجم، ويعدّ السياق ركنا أساسيا في فهم الرسالة اللغوية.

- الهوامش :

1-ابن منظور، لسان العرب، دار صادر، بيروت، 1994، ط3، ج، ص.

2- سعيد يقطين، الرواية والتراث السردي، المركز الثقافي العربي، دار البيضاء، بيروت، ط1، 1992م، ص15.

3-صلاح فضل، بلاغة الخطاب وعلم النص، سلسلة أدبيات، مكتبة لبنان، القاهرة، 1996م، ط1، ص297.

4- عبد الرحمن أبو عليّ، عناصر أوّليّة لمقاربة سيميولوجية، مجلّة العرب والفكر.

5- الأزهر الزناد، نسيج النصّ، المركز الثقافي العربيّ، بيروت، الدار البيضاء، 1993م، ص14.

6- المرجع نفسه، ص15.

7- Halliday (M.A.K) et Ruqaya Hasan, Language context and text, aspevts of Language in Social Semiatic perspective, 1989, P37.

8- OX.R.Fowler, Linguistics and the Novel, First édition, London, 1985, P45.

9- محمد الماكري، الشكل والخطاب: مدخل لتحليل ظاهراتي، المركز الثقافي العربيّ، بيروت، الدار البيضاء، ط1، 1991م، ص19.

10- عبد الملك مرتاض، النصّ الأدبي من أين وإلى أين، ديوان المطبوعات الجامعية، الجزائر، 1983م، ط1، ص18.

11- جوليا كريستيفا، علم النصّ، ترجمة فريد الزاهي، مراجعة عبد الجليل ناظم، دار توبقال للنشر، الدار البيضاء، المغرب، 1997م، ط2، ص29.

12- جون لابنز، اللغة والمعنى والسياق، ترجمة د.عباس صادق الوهاب، دار الشؤون الثقافية العامّة، بغداد، 1987م، ط1، ص221.

13-جون لاينز، علم الدلالة، ترجمة محيد عبد الحليم الماشطة، جامعة البصرة، كلية الآداب، 1980م، ط1، ص119.

14- محمد مفتاح، تحليل الخطاب الشعري، استراتيجية التناص، المركز الثقافي العربيّ، بيروت، الدار البيضاء، 1992م، ط3، ص20.

15- Beaugrand et Dressler, An Introduction to text Linguistics, London, 1984, P33.

16- سعيد يقطين، انفتاح النصّ الروائيّ، المركز الثقافي العربيّ، بيروت، دار البيضاء، 1989م، ط1، ص17.

17- رولان بارت، درس السيميولوجيا، ترجمة عبد السلام بن عبد العالي، دار توبقال للنشر، الدار البيضاء، 1985م، ط1، ص37.

18- صلاح فضل، نظرية البنائيّة في النقد الأدبي، دار الشؤون الثقافية العامة، بغداد، 1987م، ط3، ص383.

19-جيرار جينت، مدخل لجامع النصّ، ترجمة عبد الرحمن أيوب، دار توبقال للنشر، سلسلة المعرفة الأدبيّة، 1986م، ط2، ص92.

20- اندريه جاك ديشين، استيعاب النصوص وتأليفها، ترجمة هيثم لمع، المؤسسة الجامعية للدراسات والنشر والتوزيع، بيروت، 1991م، ط1، ص15.

21- محمد مفتاح، تحليل الخطاب الشعريّ استراتيجيّة التناص، المركز الثقافي العربي، بيروت، الدار البيضاء، 1992م، ط3، ص360.

22- محمد بخيت (مفتي الديار المصرية)، سلّم الوصول لشرح نهاية السؤال، المطبعة السلفية، ومكتبتها، عالم الكتب، بيروت، 1982م، ج1، ص48.

23- ابن منظور، لسان العرب، مادة (خطب).

24- محمد عليّ الخولي، معجم علم اللّغة النظري، مكتبة لبنان، بيروت، 1982م، ط1، ص103.

25- إبراهيم فتحي، معجم المصطلحات الأدبية، المؤسسة العربيّة للناشرين المتّحدين، بيروت، 1986م، ص172.

26- رمزي البعليكي، معجم المصطلحات اللغوية، دار العلم للملايين، بيروت، 1990م، ط1، ص55.

27-إدريس حمّادي، الخطاب الشرعي وطرق استثماره، المركز الثقافي العربي، بيروت، الدار البيضاء، 1994م، ط1، ص21.

28-الكفوري أبو البقاء، الكليّات (معجم في المصطلحات والفروق اللغوية)، تحقيق د.عدنان درويش محمد المصري، منشورات وزارة الثقافة والإرشاد القومي، دمشق، 1982م، ط2، ص194.

29-سعيد يقطين، انفتاح النصّ الروائي، المركز الثقافي العربي، بيروت، الدار البيضاء، 1989م، ط1، ص9.

30- محمد مفتاح، دينامية النصّ، تنظير وإنجاز المركز الثقافي العربي، بيروت، الدار البيضاء، 1990م، ط2، ص167.

31- Thomas Sebeak, Encyclopedic, Dictionary of Semiotics, Général, edition , Tome2, Moutan, 1986, P1088.

32- تودوروف وآخرون، في أصول الخطاب النقدي الجديد، ترجمة أحمد المدني، 1997م، ص105.

33- Van Dijk, Text and context, Longman, London, 1977, P17.

34- ابن منظور، لسان العرب، ج

35- الزمخشري أبو القاسم، أساس البلاغة، ط1، دار الفكر، بيروت، 1979م، ص

36- الشافعي أبو عبد الله، الرسالة، ط1، تحقيق الأستاذ أحمد محمد شاكر، المكتبة العلمية، بيروت، بدون تاريخ، ص 58.

37- رمزي البعليكي، معجم المصطلحات اللغوية، ط1، دار العلم للملايين، بيروت، 1990م، ص 119.

38- محمد علي الخولي، معجم علم اللغة النظري، ط1، مكتبة لبنان، بيروت، 1982م، ص 57.

39- عدنان بن ذريل، اللغة والدلالة، آراء ونظريات، ط1 منشورات اتحاد الكتاب العربي، دمشق، 1981.

40- جون لاينز، علم الدلالة، ترجمة محمد عبد الحليم الماشطة وآخرون، جامعة البصرة، كلية الآداب، 1980م، ص 80.

41- Firth University Press, London, 4th edition, 1964, p 4.

42- غراهام هو، الأسلوب والأسلوبية، ترجمة كاظم سعد الدين، ط1، دار الشؤون الثقافية، بغداد، 1986م، ص 52.